على عهد الامير

لماذا ؟

رواية لبنانية تاريخية

بقلم فؤاد افرام البستاني

وقد يكون من الابناء ضحايا في سبيل آبائهم
من حيث لا يعلمون

الفصل الثاني

الامير جهجاه (تابع)

ولم تمرّ دقائق حتى وصل المسافران . فترجّل غانم ، واسرع مسلّماً على الامير جهجاه . فتلقّاه فاتحاً ذراعيه ، وعانقه طويلًا . ثم التفت الى فرحات فقبّل هذا يده ، وتأخر عنهما قائدًا الفرس بتسهل .

وكانت عينا الامير لا تزالان عالقتين بوجه حفيد صديقه ، يتأمل ذاك الشباب المتدفق من كل جوارحه ، ويسرّ بتلك الحياة السارية في كل عروقه . بينا كان غانم تارةً يخفض عينيه حياء ، وطوراً يسترق النظر الى قامة الأمير فيعجب بتلك البنية الراسخة ، ناقلًا نظرهَ من الجبين العريض ، الى الصدر العريض ، الى الكتفين العريضين ؛ ويُكبر العزم والهمّة في شيخ ادرك الستين ولا يزال يقتحم غمرات الحرب كابن عشرين ... ثم انتقلت به الفكرة ، بسرعة البرق ، الى كلمة كثيرًا ما ردّدها امامه جدُّه الشيخ ، اذ كان يأتي على ذكر الامير جهجاه ، فيقول لغانم : « انه يشبه اباك كل الشبه ، وا حسرتي عليه ! هكذا كان ابوك ، رحمه الله ، عريض الجبهة ، عريض الكتفين ، عريض الصدر ... » وذهب يفكّر انهُ لولا وقعة عانوت سنة

١٧٨٣ ، لكان يتمتع الآن برأى والده بتلك العافيـة التي يرى فيها الامير جهجاه ، ولكان يرى شاربيه الخرنوبيين يقسمان وجهه المتجعد ... ولم يكد يسترسل الى حزنه هذا حتى قطع الامير مجرى افكاره ، فقال :

— وكيف تركت اخي الشيخ بو غانم ؟

— بكل خير يسأل خاطر سعادتكم . وقد ارسلني بمهمة دقيقة احب ان ابسطها امامكم على انفراد.

وكانا قد قربا من دار الامير ، فشاهد غانم رتاجاً ضخماً يقود الى دهليز فسيح ، طالما اختبأ في زواياه ، اذ كان يلعب في السنوات الغابرة مع الصغيرة بدور ؛ ولكنه لم يكن انتبه قبل اليوم الى ضخامة البناء ، وارتفاع السور ، ومناعة الدار . فظهرت على وجهه ، اماثر العجب والاطمئنان ، ممزوجة بعاطفة خفيَّة من الأمل بلقاء رفيقة ألعابه الصبيانية ، والرهبة من لقائها ايضاً . تلك الرهبة التي تدفع الانسان الى البعد عن الخطر والى اقتحامه في وقت واحد ، والتي يشعر بها المحبُّون المخلصون الاوفياء اذا ما دنا اجتماعهم بعد غياب طويل . فهم يرغبون كل الرغبة في الاجتماع القريب ، ولكنهم يخافون من ان يكون البعاد احدث تغييراً في تلك المحبة الخالصة . فلا يزالون بين الرغبة والرهبـة حتى تخلصهم الحوادث من ذاك التردد المزعج .

واذ رأى الخدم اميرَهم مقبلاً ، اسرع احدهم فاقتاد الفرس الى الاصطبل ، وتحوَّل آخر مع فرحات الى غرفة سفلى . بينما كان غانم يصعد مـع الامير ، الدرجات القليلة امام الرتاج ، وقلبـه ينبض بسرعة ، وفكره مشغول بامور كثيرة منها تلك المسألة المهمة التي اتى من اجلها . وقد كان باشدّ الحاجة الى الراحة ، فاستقبل عمل الامير بكل ارتياح ، عندما اخذه هذا الى غرفة منفردة حسنة الرياش ، ووكل بخدمته ثلاثة من الخدم كي يريحوه من وعثـاء السفر ، ويكونوا قيد إشارته في كل ما يطلب .

بعد ساعـة رجع الأمير فسأل ضيفه عن صحته ، فاستقبله هـذا بكل بشاشة شاكرًا له اهتمامهُ . ثم اختليا ، فقرأ غانم التحرير بصوت خافت وهو ينظر ،

بين الأنينة والأنينة ، الى ملامح الامير تنقبض ، والى تجعُّدات جبينه تتعمَّق ، والى باصرتيه يلمع نورهما . وما ان فرغ من القراءة ، حتى استقام الامير في مجلسه ، وقال بصوت جمع فيه كل ما عنده من الرزانة والطمأنينة :

— عندي !

وسكت قليلًا كأنه يلتذ بذاك القصد الذي اتخذه في سبيل مساعدة اميره . ثمَّ انتجهت افكاره في شعب مختلفة ، فجعل يعظم قدره شيئاً فشيئاً اذ يرى نفسه ملجأ يقصده الاصدقاء ، وملاذًا يطرق بابه ارباب الحاجات ، وغوثاً يمدّ بمعونته الامير بشير نفسه ... عند ذاك تذكَّر ما كان يردّده الخوري يوسف ، اذ كان يشرح له اسم ضيعته « بعذران » فيقول انهُ من السريانية « بيت عُدران » ومعناها « المعونة » « والاغاثة » ، ويتمنَّى لهُ ان يحقّق المسمَّى الاسم على الدوام ...

ثم التفت الى غانم بشيء من العُجب والإخلاص ، واردف :

— وعليَّ اتمام الباقي !

وانتبه اخيرًا الى ستر غانم ، فشقَّ عليهِ ذلك اذ كان يحبّ حفيد صديقه ، وابن رفيقه ، حبًّا يوازي حبهُ لابنتهِ ، فعاود ملاحظه الانقباض ، وقال بصوت خافت :

— وانت ؟ كيف تسافر وتتركنا ؟

فحنى الفتى رأسه كي لا يظهر ما على وجهه من الاحمرار ، واجاب بصوت لا يقلّ ضعفًا :

— تلك ارادة جدّي !

فأراد الامير ان يصرف هذا الهمّ عن قلب الفتى ، ويريح فكره قليلًا ، فتكلَّف الابتسام وامرَّ يده بلطف على خدّ غانم المتورّد ، وقال بحنوّ :

— قم بنا الآن نزور امرأة عمك ، ونسلِّم على بدور .

الفصل الثالث

بدور وغائم

كانت « امرأة عمه » ، اي الاميرة سعدى ، سيدةً في الخامسة والاربعين من عمرها ، ممشوقة القامة ، دقيقة الأطراف ، لا يزال على وجهها مسحة من الجمال على الرغم مما قاستهُ من العذاب العقلي ، في اول زواجها ، كي توفق بين اذواقها واذواق الامير جهجاه . كان هذا «اميرًا» بكل ما كانت تحويه تلك الكلمة من الصفات في ذاك الوقت ، اي حادّ الطبع ، سريع التقلُّب ، كثير الاوامر ، لا يحتمل معاكسة ، ولا يطيق تردُّدًا ، ولا يتصوَّر ان في الكون من يمكنه ان يعصي لهُ امرًا ؛ وقد رأيناه يترك دينه ، واهله ، وارزاقه على اثر خلاف مع احد ابناء عمه .

امَّا سعدى فكانت من افضل بنات المشايخ ، واتقاهنَّ ، واسماهنَّ عقلًا ، واعمقهنَّ فضيلةً ، اشتهرت بين أترابها بالتعقُّل ، وطول الأناة ، وبغض الملاهي ؛ حتى انها لم تكن تشترك الَّا نادرًا بالحفلات التي كانت تُقام على اثر الانتصارات ، وهي لا تكاد تعرف نقل رجليها للرقص ، ولا تحريك اصابعها على الدربكة .

وكان ان الخوري يوسف ، خوري بعذران وما جاورها ، اراد ان يخفِّف من غُلواء الأمير جهجاه بعد تنصُّره ، فكلَّمه في امر الزواج ، وهداه الى تلك الفتاة . امَّا اول اسئلة الامير عن شريكة حياته ، فكان عن اصلها . واذ علم انها ليست من الامراء اشمأزَّ قليلًا ؛ ثم قبل ، نكايةً بأهله . وهو ، لولا ذلك ، لم يكن يتصوَّر انه يتزوَّج بفتاة من بنات المشايخ . حينئذٍ استسلم لارادة الخوري يوسف فكلَّله في حفلةٍ مهيبة كانت الاولى من نوعها لصفتين غريبتين : اولاهما تنصُّر الامير الشيعي ، وثانيتهما ، وكانت اعظم من الاولى في نظر الكثيرين ، تنازل امير الى الاقتران بفتاةٍ ليست من مقامه . وعليهِ فلم يكن من الغريب ان يجتمع ابناء القرى العديدة في تلك الحفلة ،

فيقيموا العرس عشرة ايام بلياليها تتوالى فيها الولائم والالعاب المختلفة.

ولم يكن الامير رأى امرأته الّا على مرتبة الاكليل ، فعجب لذاك الجمال في غير بنات الامراء . واختبر ، فيما ولي من الايام ، ان في غير الامراء ايضاً صفات واخلاقاً لا تُحتقر كلّها . على انه لم يكن ليستطيع كبح جماح غضبه بعض الاحيان ، فيبدو حانقاً كانه لم يغفر لزوجته ذنبها الاعظم بولادتها في أسرة تنحطّ عن أسر الامراء . حتى أنعم عليه المولى ببدور ، فتعلّق بها تعلّقاً شديداً وجعل منها أمل حياته الوحيد . واصبح ، بفضل تلك الصلة التي يجملها الله اضمن واسطة للتوفيق بين الزوجين ، واقوى دافع للجهاد العائلي المتضامن ، دمث الاخلاق ليّن الطباع ، لا يكلّم امرأته الّا بلطف ، ولا يأمر خدمه إلّا بهدوء ، ولا يحسن لفقير الّا باتّضاع . فرسخت هيبته في القلوب اذ احاطت بها المحبة ، واشتدّت وطأته في البلاد اذ زانها الاعتبار والاحترام.

وفي صيف سنة ١٧٨٢ ، على اثر اخماد هياج الجانبلاطية الذي حصل بسبب ضريبة التوت ، دعا الامير جهجاه صديقه الشيخ بو غانم مع ابنه غانم لقضاء مدة في اعالي بعذران . فاقبلا ومعهما الولد الصغير ، وعمره اذ ذاك نحو الست سنوات ، وكانا قد اسمياه يوسف . فاقاموا شهراً في اهنأ عيش . وكان يوسف الصغير يقضي ايامه باللعب مع بدور ، التي كانت تصغره بنحو سنتين . حتى اذا اقبل المساء جلسا يتحادثان ، فيتبادلان الحكايات العديدة التي كان يقصّها على كل منهما بعض الاهل والخدم . او يرميان بنظريهما الى نقاط الافق البعيد ، وقد كلّلها المساء الأغبر بستاره ، فاتصل الضباب بقمم الجبال واطراف السماء ؛ فكان يوسف يُري رفيقته ، في تلك الهنات من الغيم ، جميع انواع الحيوانات الضارية باختلاف اشكالها . وربما شاهدا ، في بعض المنعطفات المظلمة في اسفل الوادي ، غير ذلك من الاشكال المخيفة كحيوانات لا وجود لها الّا في مخيّلة الصغار ، او جبابرة قهّارة من فصيلة الجان المفزعة.

كل هذه الألاعيب والمحادثات كان يراها ويسمعها الامير جهجاه وامرأته وضيفاهما ، فيرعونها بكل انتباه ، وفي دماغ كل منهم يجول فكر واحد ، وهو ان « بدور ليوسف ويوسف لبدور ! » ولكن لم يكن احد منهم يبدي ذاك

الفكر ، لاعتبار الست سعدى ان الأمر في ذلك لزوجها ولا رأي لها الّا الموافقة عليه ، ولاعتبار الامير ان ذاك المشروع سابقٌ لأوانهُ . اما الشيخ بو غانم وولده فلم يكونا يصدّقان بعد ان الامير يرضى بزفاف ابنته الى احد ابناء المشايخ . لم يكونا يصدّقان ، ولكنهما كانا يشعران الشعور التام انه لن يكون الّا كذلك . اما الصغيران فلم يكن يهتمها من تلك الافكار الخفيّة شيء سوى انهما كانا يُسرّان غاية السرور ، اذ يلعبان معاً او يتحدثان معاً . حتى انهما لم يشعرا بعزم الاهل على الفراق حتى دخلا في حزن عميق تحوّل ، ساعة السفر ، الى بكاء وعويل

* * *

مرّت الشهور على تلك الزيارة ، فكانت المؤامرة على الامير يوسف في دير القمر ، بتدبير اخويه الامير سيد احمد والامير افندي مع بعض الجانبلاطية . وكان مقتل الامير افندي وهرب الامير سيد احمد الى المختارة ، وهياجه الشيخ حسن جانبلاط والشيخ عبد السلام العماد ، وسير الجميع على دير القمر . ثم هرب الامير يوسف الى عكار ورجوعه بعسكر الجزار . وكانت وقعة عانوت المشؤومة على بيت الشيخ بو غانم ، اذ قُتل فيها وحيده غانم تاركاً ذاك الطفل يتيماً من الوالدين ، لان امه كانت قد توفيت على اثر ولادته . فحزن جدّه عليه كل الحزن ، واستبدل اسمه « يوسف » باسم ابيه « غانم »،وانقطع عن كل اشغاله منفرداً في قصر الشربين مع الوحيد الصغير ، مخصّصاً ما بقي من حياته لتنشئته على اساليب الشهامة اللبنانية

اما الامير جهجاه فكان وقع النبأ شديداً عليه وعلى جميع اهل بيته ، فأقام لصديقه مناحة لائقة . ثم قدم مع اهل بيته لتعزية الشيخ بو غانم فمكثوا مدة كان الامير جهجاه يتنقل في اثنائها مع عسكر الامير يوسف ، من الشوف الى البقاع ، الى حاصبيا ، الى بلاد جبيل ، الى جبال عكار . حتى اواخر سنة ١٧٨٥ ، اذ أمّن الجزار الامير يوسف وامر مدبّره ان يكتب الى الشيخ سعد برجوع الامير الى بلاده . فعاد الامير جهجاه باهله الى بعذران

ولما كان تعلّق الولدين احدهما بالآخر يزداد يوماً فيوماً، استأذن الامير جهجاه صديقه باخذ غانم معه، كي يروّح عن نفسه بقضاء مدة في تلك المرتفعات. وكان قد عرض على الشيخ ان يعقد خطبة وحيده على بدور من ذاك الحين، حتى اذا اصيب الابوان باحدى غوائل الحرب، لا سمح الله، يكون مستقبل الولدين مقرّرًا. فسرّ الشيخ لهذا التنازل من الامير، ورأى ان الايام ستحقّق ما كان يرجوه ويخشى من عدم تنفيذه؛ فاتفق مع الامير والست سعدى على ذاك الامر وسلّم الولد «لعبّه» كي يقضي مدةً في بعذران. وكانت تلك الايام السعيدة التي تذكرها غانم اليوم، اذ ظهر امامه الرتاج الضخم والدهليز الفسيح بزواياه العديدة ...

* * *

كانت الست سعدى، في ذاك الصباح، على السطح تستقبل اشعة الشمس، والمنزل بيدها تارةً تفتله برشاقة فيبرم ساخباً وراءه خيط الصوف طويلًا دقيقًا، وطورًا تلتفت نحو المزرعة، فتتجه افكارها الى زوجها، واعماله وتنقّد مراكز رجاله والاخطار التي تحيق به، فتخاف ان يكون اصابه شيء... وتريد ان تتحقق هل تأخر عن ميعاد رجوعه، فتنظر الى حيث بلغت أشعة الشمس من الدار، فتطمئن اذ ترى انها لم تتجاوز الحوض بعد. وبينما هي كذلك اذ لمحت زوجها يسير مع رجل آخر، ووراءهما ثالث يقود فرساً خُيل اليها انها تعرفه. فأسرعت بالنزول عن السطح، واشارت الى الخدم باستطلاع طلع القادمين. ودخلت الى دار صغيرة مختصة بالنساء، كانت فيها بدور تسقي بعض النباتات الغضّة زرعتها بيدها، وسهرت عليها حتى ازهرت؛ فكان فيها الزنبق الابيض، والفلّ المكتبس، والقرنفل الاحمر والبرتقالي، والمنثور الابيض والبنفسجي، مما كان يعجب به ابوها، اذا جاء مساء وجلس يدخن الماسورة امام بستان بدور الصغير الجميل

وما هي دقائق حتى عاد الخادم نمر واخبر الست بوصول غانم. فاضطربت بدور قليلًا، واسرعت مع امها تستعدّ لمقابلة رفيق صباها، لانها لم تكن تحجب عنه، ولا امها عن اهله (لها بقيّة)